جاسر بحر

لحظة صمت

توارت رأسه أسفل الغطاء، فوق الغطاء وسادة، وتحت رأسه وسادة وفوق الوسادة والغطاء يده اليمنى تُطبق على الجميع، ورغم ذلك مازالت دقات عقارب الساعة تقرع في أذنه، تتوالى الدقات الواحدة تلو الأخرى في تتابع رتيب، أطاح بالوسادة بعيدًا وأزاح الغطاء عن وجهه، تقلب على جانبيه يمينا ويسارًا ثم رقد على ظهره محدقًا بعينيه إلى السقف، أزاح الغطاء عن جسده ونهض من فراشه، تطلع إلى عقارب الساعة، ساعات الليل تحبو ولا تسير.

خرج من الحجرة، وقف برهةً، تراجع ثم تقدم من جديد، ساقته قدماه إلى غرفة المعيشة، هنا كان المكان ينبض بالحركة وأحيانًا بالضجيج، الأولاد في أركان الغرفة يلعبون، يستذكرون دروسهم أو حتى يتشاجرون، والزوجة تجوب البيت فتشيع فيه البهجة والسرور.

استشعر برودةً تسري في جسده فأسرع وارتدى معطفه، جلس على مقعده وانزوى في أحد أركان الغرفة وراح يستأنس بذكريات الماضي، كان هذا المعطف هو آخر ما أهدته له زوجته، أشعل السيجارة وتلحف بالمعطف، ومع ذلك مازالت البرودة تتسرب إلى عظامه، فالبرد هذا العام ليس كالأعوام الماضية.

ترامت إلى سمعه قطرات المطر وهي تطرق سطح النافذة، ثم زمجرَ الرعدُ في السماءِ مدويًا فانهمر المطر وتراطم بالنافذة، فالشتاء هذا العام ليس كالأعوام الماضية.

فى الليل تمسي الأصوات أكثر وضوحًا، وفي كل ليلة تتسلل إلى أذنه أحاديث الجيران في الشقق المجاورة، أصوات دبيب الأقدام على السلم، فالصمت يفضح الأصوات كما يفضح النهار ما يستره الليل، وهذه الليالي ليست كالليالي الماضية.

تسللت أشعة الشمس عبر النافذة فبدد ضوء النهار وحشة الليل، وتراقصت العصافير فوق النافذة وهي تزقزق معلنةً صباحَ يومٍ جديد.

استيقظ من نومه وتناول إفطاره ثم ارتدى بذلته السوداء وعقد رابطة العنق ووضع عطره المفضل، تطلع إلى وجهه في المرآة، فإذا برجلٍ قد بلغ الستين من العمر بدأت التجاعيد تتسلل إلى وجهه وخطه الشيب، أبيض الوجه، عريض الشارب، كما أنه وهو الأهم مازال يحتفظ بقدرته على العطاء والعمل لسنوات طوال، فلقد وجد في العمل سلوانه الوحيد.

وضع المفتاح في الباب وأداره ثم انتبه أخيرًا، عاد وألقى المفتاح على المنضدة، فقد مضت ثلاثة أشهر إلى الآن ومازال يستيقظ صباح كل يوم في موعده ويتأهب للذهاب للعمل، ولكن، وعند لحظة ما ينتبه، ويتدارك الأمر ثم يعود أدراجه، ربما تكون هذه اللحظة عند باب الشقة أوعند باب السيارة، أو ربما في الطريق، وفي كل مرة يُلح عليه نفس السؤال دون أن يعلم له إجابة: هل كان ناسيًا أم كان متناسيًا؟

عاد إلى مقعده من جديد، تصفح الجرائد، أشعل السيجارة،

أدار التلفاز ثم أشعل المدفأة، أغلق التلفاز ثم أشعل سيجارة من جديد.

خرق الصمتَ الطويلَ جرسُ التليفون، انبسطت أساريره، فربما تكون هذه المكالمة التي يتوق إلى سماعها، لعلها تحمل معها بشرى عودته للعمل من جديد، لكنه جرس طويل، إنه ترنك من أمريكا، من ابنه الذي هاجر منذ عشرة أعوام، تبادلا السلام والتحية، سأل الابن عن الصحة وأجاب الأب بالعافية، ثم سأل الأب بدوره عن حال الابن وحال زوجته الأمريكية التي لم تزر مصر سوى مرة واحدة شاهدت فيها أهرامات الجيزة وتمثال رمسيس وعائلة زوجها.

دارت الأسئلة باردة والإجابات فاترة والعبارات قصيرة تكاد تنتهي قبل أن تبدأ، فلقد تعلم الابن في غربته أن لكل شيء ثمنًا، فالوقت له ثمن والكلام له ثمن، وأيقن الأب أن للغربة أيضًا ثمنًا.

وقطع هذا الفتور سؤالُ الابنِ عن تقاعد أبيه وعن وقته فيما يمضيه، فكاد الأب أن يبوح لولا أن تثاقلت الكلماتُ على لسانه فعجز اللسان عن إخراجها وابتلعها الأبُ في جوفه ونطق اللسانُ بأن كل شيءٍ على ما يرام وأن الحال أفضل مما كان.

التقف الابن هذه الكلمات دون أن يُعقب أو يتساءل عن التفاصيل، فهو لايود سماع غيرها، فلقد رفعت عنه الحرج والشعور بالتقصير.

جاب حجرات المنزل ذهابًا وإيابًا، فتعثرت قدماه بدمية صغيرة كانت تلعب بها ابنته وهي طفلة، جثا على ركبتيه ثم التقط الدمية من الأرض، وتذكر ابنته عندما كانت تحبو على أرض هذه الغرفة ثم

تأتي إليه وتحاول أن تتسلق الأريكة فتقع وتبكي، فيحملها من على الأرض ويقبلها، ثم ارتكز على يديه ومد ساقيه أمامه وأسند ظهره إلى الأريكة فتجلت أمامه صورة ابنته مغمضة العينين تعلو وجهها ابتسامة شاحبة، فلقد كان هذا آخر ما وقعت عليه عيناه من جثمان ابنته قبل أن تتوارى تحت الثرى، فلقد داهمها ذلك الزائر القبيح يرتع في جسدها وينبش في عظامها، ووقف الأب يرقب ابنته عاجزًا وهي من آلام المرض تستغيث، حتى أذن الله لها أن تستريح، ولم تحتمل الأم الفراق فلحقت بابنتها بعد بضعة شهور.

مرت ساعات النهار ببطء شديد، ود لو تحدث لأحدٍ ليخرق الصمتَ الذي بات يخيم على أركان حياته، رفع سماعة الهاتف ولكنه تذكر أصدقاءه وزملاءه الذين انفضوا من حوله، فلقد كانوا له من قبل يتوددون وما إن ترك منصبه حتى صاروا له مُنكرين.

ضاق صدره وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولم يدرِ إلا وهو يسير في الطريق لا يعرف إلى أين تسوقه قدماه، كانت الشمس تميل إلى الغروب، وشعر أن حياته هي الأخرى تميل إلى الأُفول، ظل يسير ويسير حتى انبسط الظلام أمامه وتشابهت الطرق وتداخلت الأصوات، وعندما انتبه وجد نفسه أمام منزل عم صابر، الخادم الذي كان يعمل عند أبيه، ذلك الرجل الذي رباه صغيرًا وله مكانة كبيرة في قلبه، توقف عن المسير، فلقد مرت سنون طويلة منذ آخر مرة قام بزيارته فيها، ذلك الرجل العجوز الذى قارب على التسعين من العمر كان مثالاً للعزيمة والإصرار، لقد توفي أبناؤه جميعًا أمام عينيه وماتت زوجته منذ زمن بعيد، ورغم ذلك كان مستمسكًا

بالحياة، فكر أن يزوره ولكنه تردد متسائلاً، هل ما زال صابر على قيد الحياة؟

كان من الممكن أن يكمل طريقه ويعود إلى منزله، ولكن غمرته رغبة شديدة وحنين دفين كي يتطلع إلى وجه عم صابر، قطع تردده وطرق الباب فخرجت له فتاة في العشرين من العمر، انقبض صدره، فعم صابر كان يعيش بمفرده وكان دائمًا قادرًا على خدمة نفسه.

سألها بتوجس: هل عم صابر موجود؟ أجابته: نعم، مين حضرتك؟ أخبرها عن نفسه، فرحبت به وقالت: جدي كان كثير الحكي عنك وعن والدك يرحمه الله.

دخل الغرفة فرأى عم صابر وهو جليس الفراش لا يستطيع الحركة، فلقد أخبرته حفيدته قبل دخوله عليه أن جدها أصابه الشلل وفقد النطق منذ عام وأصبح غير قادر على الحركة.

نظر إلى عم صابر فتراءى له الكلام حبيساً في عينيه، سادت لحظة من الصمت عجزت فيها الكلمات عن التعبير والوصف، تبادلت العيون النظرات وباحت بالكثير دون كلمات ونفذت النظرات في الصدور أبلغ من أي عبارات، اغرورقت عيناه بالدموع ثم انفجر في البكاء وارتمى في أحضان عم صابر.

ربت عم صابر على ظهره وبكت عيناه عاجزةً عن الكلام.

خرج من عنده وقد انجلى همٌّ كبيرٌ كان جاثمًا على صدره، ولكنه توقف متسائلاً، أكان حقًا يبكي صابرًا أم من همومه بكى ليستريح؟